تحت ضربات عـــدم القدرة على ايجاد معـادل موضوعي لحب عاطفي . **وماض موضوعي** هـو ماضي الاسرة الاقطاعية التي انتـهى دورهـا ، فتجاول بعث امجادها ببعث التواريخ القديمـة واعادة صياغتها ، وامين يعيش نقطة تقاطع هذين المستويين في زمنين منفصلين : **الزمن الاول** هـو الزمن الذاتي انه الجلد القديم الذي يلتصق على جسد البطل ، ولا يستطيع منه خلاصا . فعلاقـة الحب التي ربطته بسمية ، ثم تحول هذا الحب الى زواج دام سنتين دون ان ينتج عائلة ، اي دون ان يصل الى تأسيس بداية موضوعية للعلاقة بالمقياس الاجتماعي السائد ، هذا الحب المستحيل موضوعيا ، يتحول في ذاتية امين الى احسـاس عارم بالفشل . انه فشل ذاتي ، او هو بمقياس اكثر دقة ، فشل محاولة كسر التقاليد دون اسس ثابتة ، لذلك يتحول من فشل امين الشخصي الى فشل النموذج الرومانسي الذي لا يزال يلعبه . **والزمن الثاني** هو استبتاع ذاتي وموضوعي للزمن الاول . ذاتي : لانه ينطلق من الفشل ليصل الى اليأس ، عند نقطة اليأس هذه تصبح الموهبـة مجرد صنعة يستطيع امين استخدامها وتوظيفهـا في خدمة قضية لا يؤمن بها اساسا . وموضوعي : لانه يوظف في خدمة طبقة انهارت تاريخيا وهي لا تزال تحلم على الاقل بتخليد امجادها . فيتقاطع الذاتي بالموضوعي ، حين يصبح مبرره الوحيد في نقطة اليأس الكاملة . يولد هذا اليأس نمطا رتيبا من الحياة ، ويتشكل من داخل علاقة متوازيـة داخل دائرة محكمة الاغلاق . فما دامت الرواية تعيش في زمنين من الذاكرة ، فان كسر اطارهـا المغلق يصبح عملية مستحيلة . فالفعل الموضوعي الذي يتمثل في الرواية عادة بشبكة من العلاقـات الاجتماعية غابت كليا في هذه الرواية . اي نحن امام علاقة احادية ـــ فرد مجتمع . والمجتمع هنا ضيق الى ابعد الحدود . انه الزوجة في المـاضي وعنايت وركزان في الحاضر . لذلك تنفجر الرواية في مستويين : ـــ المستوى الاول هو مستـوى الحدث الطبيعي . وفاة عنايت هانم وتمرد ركزان على تراث شقيقتها ورفضها لمتابعة كتابة قصـة العائلة ، هذا المستوى الاول يبدو افتعاليا ، فحين يضيق المؤلف بأبطاله او يجدهم في مأزق حقيقي ، فان اسهل الامور هو قتلهم . لكن جبرا حين اختار قتل عنايت هانم من خلال الحدث الطبيعي ، فانه اراد التأشير الى المستوى الثاني : الرمز . داخل الرمز يصبح الحدث الطبيعي اشارة الى المستقبل . تفجير الواقع من داخله على ايقاع رمزين متداخلين : الماء والنار . فاذا كانت سمية قد تخلت عن زوجها بعد طوفان الماء في الحي الشعبي الذي كان يقيم فيه ، فانه حين يرفضها ويرفض ركزان في نهايـة الرواية ، فانه يرفضها على وهج النار التي تحرق الماضي . ركزان تحرق قصرها الكبير وامين يرفض حبه الرومانسي الماضي ويبدأ في اعادة اكتشـاف العالم . « غير ان الطريق لم تظل خالية طويلا ، ما هي الا فترة قصيرة حتى كانت شوارع المدينـة تمتد وتتشعب امامي . تملؤها جموع الناس . ولم يكن من العسير علي ، حين حدقت في عيونهم ، ان ادرك ان الكثيرين منهم كانوا هائمين على وجوههم ، كما كنت هائما لسنتين مديدتين ، يبحثون عن نهاية لليل طويل وبداية لحياة جديدة » . داخل المـاء جرت عمادة أمين في مرارة الواقع ، كأنهـا لتذكره بطفولته البائسة . وداخل النـار جرى تحطيم العالم البائس الذي عاشه . بين الماء والنار ، داخل العناصر الطبيعية الاكثر التصاقا بالانسان ، فجر جبرا الدائرة المغلقة التي حاصرت بطلـه . وخرج من تجربة ذاتية الى كتابة الرواية الاجتماعية التي ستبلغ ذروة احكامها البنائي في « السفينة ».

حصار اللغة

كتبت هذه الرواية لاول مرة باللغة الانكليزيـة (من حوار مع جبرا سوف تنشره شؤون فلسطينية في عدد قادم) ، ثم ترجمها المؤلف بنفسه ونشرها في بغداد بعد حوالي عشر سنوات على كتابتها . مسألة اللغة هي في جوهرها تعبير نموذجي ، عن اشكالية ولادة الرواية العربية الحديثة . واذا كان تضخم هذه المشكلة هنا ، ليس عاما . فانها تؤكد الانقطاع النسبي الذي ادى الى ولادة الروايـة العربية . فرواية « صراخ في ليل طويل » هي من المحاولات التأسيسية الاولى التي استطاعت وضع اطارات التطور الادبي في الرواية داخل حقـل الممارسة الاجتماعية . انه يتخلـى نهائيا عـن الوعظية ، وعن الجملة الغاطية الطويلـة ، ويحاول ان يقيم لغة جديدة ايصالية وواضحـة منذ البداية . فيعكس هذا الطموح على السياق الروائي في ناحيتين : فهنـاك من جهة اولـى